

أبحاث البلاغة العربية

أحمد مطلوب

(١)

البلاغة علم من علوم اللغة ، بها وبالنقد يقاس الادب ويبيان حسنه من رديئه وجميله من قبيحه ، أو هي – كما قال الاستاذ أمين الخولي – روح الادب ، والادب مادتها تعلم صنعه وتبصر بقدرها^(١) . والبلاغة عندنا من علوم اللغة العربية والاسلامية ، وقد خدمت العربية خدمة عظيمة وعملت على ابراز ما في القرآن الكريم من وجوه الجمال وبيان سر الاعجاز ، وذلك بالبحث في اسلوبه وطريقة ادائه المعانى المختلفة ، ومقارنته باساليب العرب الشعرية والترية .

وليست البلاغة مقصورة على العرب ولا على أمة دون أمة ، وإنما هي في معظم اللغات التي بلغت درجة كبيرة في التطور والارتقاء . وقد عبر العرب عن هذا منذ عصورهم الأولى فقالوا : « إن البلاغة ليست مقصورة على أمة دون أمة ، ولا على ملك دون سوقه ، ولا على لسان دون لسان ، بل هي مقسمة على أكثر الألسنة ، فهم فيها مشترين كون ، وهي موجودة في كلام اليونانية وكلام العجم وكلام الهند وغيرهم »^(٢) . ويؤكد هذا ما ذكره الجاحظ من أقوال مختلفة في البلاغة ، فهي عند الفارسي : معرفة الفصل من الوصل ، وعند اليوناني : تصحيح الاقسام واختيار الكلام ، وعند الرومي : حسن الاقتضاب عند البداهة والغزارة يوم

(١) البلاغة وعلم النفس مقالة نشرت في مجلة كلية الآداب – جامعة القاهرة ، المجلد الرابع ، الجزء الثاني ديسمبر ١٩٣٦ ، ص ١٤٥ وكتاب (مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والادب) للاستاذ الخولي ص ١٨٠ وما بعدها . (ط الاولى ١٩٦١ بالقاهرة) .

(٢) رسالة التفضيل بين بلاغتي العرب والعمجم لأبي أحمد الحسن بن عبد الله بن سعيد العسكري ، وهي مطبوعة في كتاب التحفة البهية والطرف الشهية ص ٢١٣ (مطبعة الجواب في القدسية ١٣٠٢ هـ) .

الاظالة ، وعند الهندي : وضوح الدلالة واتهاز الفرصة وحسن الاشارة^(٣)
 وقد اهتمت الامم بتدوين قواعد البلاغة واصولها لتكون عونا
 للدارسين والناقدین ولعل اليونانيين كانوا أول من عنى بتدوين البلاغة
 والبحث في مسائلها ، فارس طو بحث كثيراً من موضوعاتها كالمجاز
 والاستعارة والتشبیه والخبر والامر والدعاء وغيرها في كتابه (الشعر)
 و (الخطابة) . ولم يكن العرب أقل من غيرهم منزلة ورفعه بعد ظهور
 الاسلام ، فدونوا علومهم اللغوية وتراثهم الادبي ، وكانت البلاغة من
 اوائل العلوم التي اهتم العرب والمسلمون بها ل حاجتهم إليها في معرفة
 روعة القرآن وسحره ، وتميز الكلام الحسن من الرديء والجميل من
 القبح ، إلى جانب رغبة الاجانب في تعلم اللغة العربية وفهم أساليبها
 وتذوقها بعد أن أصبحت اللغة الرسمية للاقطاع المفتوحة يوم انتشر
 الاسلام وساد معظم بقاع العالم المعمور يومذاك . وقد أشار القدماء إلى
 أهمية البلاغة وما ترمي إليه ، وهذا ابو هلال العسكري (٣٩٥ هـ)
 يوضح اهميتها واهدافها بقوله : « ان احق العلوم بالتعلم وأولها بالتحفظ
 - بعد المعرفة بالله جل ثناؤه - علم البلاغة ومعرفة الفصاحة الذي به يعرف
 اعجاز كتاب الله تعالى ٠٠٠٠ وقد علمنا ان الانسان اذا اغفل وأخل بمعرفة
 الفصاحة لم يقع علمه باعجاز القرآن من جهة ما خصه الله به من حسن
 التأليف وبراعة التركيب ٠٠٠٠ فينبغي على من هذه الجهة ان يقدم اقتباس هذا
 العلم على سائر العلوم بعد توحيد الله تعالى ومعرفة عدله والصدق بوعده
 ووعده ٠٠٠٠ ولهذا العلم بعد ذلك فضائل مشهورة ومناقب معروفة ، منها
 ان صاحب العربية اذا اخل بطلبها وفرط في التماسه ففاته فضيلته وعلقت
 به رذيلة فوته عفى على جميع محاسنه وعمى سائر فضائله ؟ لأنه اذا لم
 يفرق بين كلام جيد وآخر رديء ، ولفظ حسن وآخر قبح ، وشعر
 نادر وآخر بارد ، بان جهله وظهر نقصه . وهو ايضا اذا اراد أن يضع
 قصيدة او ينشئ رسالة وقد فاته هذا العلم مزج الصفو بالكدر ، وخلط

(٣) ينظر كتاب البيان والتبيين ج ١ ص ٨٨ ط عبد السلام هارون .

العرر بالغرر واستعمل الوحشى العكر فجعل نفسه مهزأة للجاهل وعبرة للعقل واذا اراد أيضا تصنيف كلام منتشر أو تأليف شعر منظوم ، وتحطى هذا العلم ساء اختياره له وقبحت آثاره فيه فأخذ الردىء المرذول وترك الجيد المقبول فدل على قصور فهمه وتأخر معرفته وعلمه «^(٤) » .

فغاية ما ترمى دراسة البلاغة اليه عند معظم البلاغيين هي معرفة اعجاز القرآن الكريم وبيان سر اعجازه ، وهذا غرض ديني بحت ، الهدف منه خدمة القرآن وتشييد العقيدة الإسلامية في أذهان الناس ، إلى جانب هدفين آخرين هما : هدف نقدى وهو معرفة الكلام الجيد من الردىء ، وغرض تعليمى وهو الاستعانة بالبلاغة في إنشاء الأدب شعره ونثره . وهذه الغايات الثلاث لا تكاد تخلو منها مقدمة من مقدمات كتب البلاغة العربية عامة والكتب التي تبحث في اعجاز القرآن خاصة .

والبلاغة مع النقد يكونان السبيل السوى إلى فهم الأساليب المختلفة والإجادة في المنظوم والمنتور ، لأن البلاغة لا تختلف عن النقد إلا من حيث المعالجة وطريقة العرض ، أما موضوعهما فواحد وهو الأدب ، أو الكلام الأدبي^(٥) .

وقد نشأت البلاغة والنقد عند العرب جنبا إلى جنب ، وكانت نشأة البلاغة بسيطة ساذجة ، وتمثل بنزور البحث النقدي في الأحكام التي كان الشعراً وغيرهم يصدرونها . وليس قصيدة امرىء القيس وعلقة الفحل ، وقصيدة النابغة الذبياني الذي كانت تضرب له قبة في سوق عكاظ ، وقصيدة

(٤) كتاب الصناعتين لابي هلال العسكري ١ - ٣ ، ط الاولى بالقاهرة ١٣٧١ - ١٩٥٢ تحقيق على محمد البحاوى ومحمد أبو الفضل ابراهيم .

(٥) لقد فرق الاستاذ ونشستر بين البلاغة والنقد والاستاذ أحمد الشايب في كتابه (الاسلوب) ص ٧ و(أصول النقد الأدبي) ص ١٦ ، والدكتور شوقي ضيف في كتابه (النقد) ص ٩ ، والدكتور بدوى طباعة في كتابه (أبو هلال العسكري ومقاييسه البلاغية ط الاولى) ص ٧١ و (قدامة بن جعفر والنقد الأدبي ط الاولى) ص ١١ - ١٢ .

الخسأ وحسان بن ثابت ، وأسوق العرب التي كان الناس يجتمعون فيها فيلقى الشعراء شعرهم والخطباء خطبهم وينقد بعضهم بعضاً ، – ليست هذه – الا بداية حسنة للنقد والبلاغة ، وبذوراً اثمرت أصولاً وقواعد بعد قرن أو قرنين

وقد أثر القرآن الكريم تأثيراً عظيماً في تطور البلاغة^(٦) فكان محفزاً هاماً للاتجاه نحو تدوين أصولها وقواعدها ، ولكن هذا الأثر لم يكن كبيراً واضحاً في صدر الإسلام لأنشغال العرب في تثبيت دعائم ملوكهم ونشر الإسلام خارج جزيرة العرب ؟ لذلك بقي النقد في العصر الإسلامي الأول سادجاً يعتمد على الذوق أكثر من اعتماده على التعليل شأنه في ذلك شأن النقد في العصر الجاهلي . ولم تكن أحكامهم النقدية ومقاييسهم البلاغية تخرج عن قولهم : «أشعر الناس أمرؤ القيس اذا ركب ، وزهير اذا رغب ، والنابغة اذا رهب ، والاعشى اذا طرب » ، أو : أشعر بيت في الغزل قول جرير :

ان العيون التي في طرفها حور قتلنا ثم لم يحيى قتلانا

أو : أهجي بيت قول الشاعر :
فغض الطرف انك من نمير فلا كعبا بلغت ولا كلابا

وغير ذلك من الأحكام البسيطة الساذجة التي تعتمد على الذوق أكثر من اعتمادها على التعليل .

ولم يكن هذا النقد الذوقي كافياً لتكوين قواعد وأصول تفيد ناقد الأدب أو منشئه وذلك لعدم وجود منهج يسير عليه النقاد ، واختفاء التعليل المفصل . ولكن النقد والبلاغة خطوا خطوات كبيرة في صدر الدولة العباسية ، وكان

(٦) تنظر مقالة أثر القرآن في نشأة البلاغة لاحمد مطلوب المنشورة في مجلة المعلم الجديد في المجلد الحادى والعشرين الجزء الثالث مايس - حزيران ١٩٥٨ م ، وقد كتب الدكتور محمد زغلول سلام بعنوان طريقة في هذا الموضوع وهو (أثر القرآن في تطور النقد العربي إلى أواخر القرن الرابع الهجري) .

هذا أمراً طبيعياً بعد أن استقر العرب في البلاد التي رفعت عليها لواء الإسلام ، وبعد أن اتصلوا بغيرهم من الأمم وثقافاتهم وترجمت العلوم المختلفة عن اليونانية والسريانية والفارسية والهندية وغيرها .

وبقي النقد يسير مع البلاغة جنباً إلى جنب حتى القرن الرابع الهجري حينما وضع أبو هلال العسكري كتاب الصناعتين ، فكان هذا الكتاب نقطة تحول النقد إلى بلاغة ، أو نقطة البدء بتقريب قواعد البلاغة وضبط مسائلها وأصولها ، وإن كان للبلاغة وضبط مسائلها بذور منذ عهد مبكر ، فقد ظهرت أوائل مسائلها في كتب النحو والتفسير الأولى .

وتتابع التأليف في البلاغة حتى وصلت قمتها على يدي الشيخ عبدالقاهر الجرجاني مؤلف كتابي (أسرار البلاغة) و (دلائل الاعجاز) ، وقد استطاع أن يجمع في هذين الكتابين معظم مباحث البلاغة ولكنه لم يقسمها كما قسمها السكاكي (٦٢٦هـ) ومن جاء بعده من المختصين والشراح ، وإنما بحثها بطريقته الخاصة فكان التجنيس إلى جانب الاستعارة والتشبيه ، والفصل والوصل إلى جانب المجاز والكتابية . وقد وقفت البلاغة بعد عبدالقاهر ولم تكن الكتب المؤلفة بعده الا احترازاً لما كتب .

ومع أن كتب البلاغة العربية يكاد يأخذ بعضها من بعض ، وتکاد مناهج بحثها تتفق إلى حد ما ، نرى اتجاهين واضحين في طريقة بحثها ، فمن البلاغيين من سيطرت على كتبهم التزعة الأدبية ، ومنهم من سيطرت على كتبهم التزعة الفلسفية والعقلية ، وكان نتيجة ذلك أن ظهرت مدرستان بلاغيتان هما : المدرسة الأدبية والمدرسة الكلامية ، أو كما يسميهما السيوطي : « طريقة العرب والبلغاء ، وطريقة العجم وأهل الفلسفة »^(٧) ، وكان لكل من هاتين المدرستين أو الطريقتين خصائصها ومميزاتها ورجالها الإعلام . فما هاتان المدرستان ؟

(٧) ينظر كتاب حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة للسيوطى

ج ١ ص ١٩٠ .

(٢)

ظهرت مدرستان بلاغيتان هما : المدرسة الادبية والمدرسة الكلامية ، وكان ظهورهما مبكراً منذ أن بدأت بحوث البلاغة تأخذ طريقها في النمو والتطور فقد ظهرت في كتابات الجاحظ مسحة كلامية عند عرضه بعض مسائل البلاغة في كتابيه : (البيان والتبيين) و (الحيوان) ، وغيرهما ، ولكن هذه المسحة الكلامية لم تسيطر سيطرة تامة ولم يظهر أثرها واضحًا ؛ لأن عصر الجاحظ كان عصرًا ازدهر فيه الأدب ، وبلغ ذوق الناس له حداً كبيراً فغطت هذه التزعة على اتجاه الجاحظ المتكلم المعزلى ، كما كان نفسه أدبياً له ذوق واحساس فني . ولكن هذا الاثر بدا واضحًا في العصور التي تلت الجاحظ حينما كسد الأدب وماتت الحركة الادبية أو جنحت نحو التقليد واجترار الماضي ، فانصرف كثير من الأدباء إلى البداع وترزيق كلامهم بما لا يقبله الذوق السليم ، وحينذاك سقطت التزعة العقلية والكلامية على دراسة البلاغة .

وأمر المدرستين الادبية والكلامية قديم ، فهو ليس ولد عصور متأخرة ، ولا ولد فترة معينة فأبو هلال العسكري نبه إلى اتجاهين مختلفين في دراسة البلاغة وقال : « وليس الغرض في هذا الكتاب سلوك مذهب المتكلمين وإنما قصدت فيه قصد صناع الكلام من الشعراء والكتاب ، فلهذا لم أطل الكلام في هذا الفصل »^(٨) ، وقد وضح في مقدمة كتابه الصناعتين أنه لن يسير على منهج المتكلمين لأنه منهج ليس فيه نفع كبير في بحث الأدب ومقاييسه البلاغية والنقدية ، وأنه اختار منهاجاً آخر أقرب إلى روح الأدب ، هو منهج الشعراء والكتاب . ولو لم تكن جذور هاتين المدرستين البلاغيتين بعيدة الغور في الزمن لما حددتها أبو هلال وبين ما بينهما من اختلاف يدرك من قوله : « وإنما قصدت فيه قصد صناع الكلام من الشعراء والكتاب » .

فلهاتين المدرستين - كما يتضح - خصائص ومميزات ، ولكل منهما

(٨) كتاب الصناعتين ص ٩ .

منهج خاص في بحث البلاغة ، فما خصائص كل منها ، وما أهم مؤلفاتهما ؟
ومن أشهر رجالهما ؟ ولنبدأ بالمدرسة الكلامية .

كان للفلسفة وعلم الكلام أثر كبير في الفكر العربي الإسلامي في العصر العباسي الذي بلغت فيه الحضارة أوج ازدهارها بفضل الحركة العلمية التي رعاها الخلفاء ، وبفضل الترجمة عن اللغات الأجنبية . ولم يسلم أي علم من العلوم الإسلامية العربية من الأثر الفلسفى والكلامى ، وقد كان للبلاغة نصيب عظيم من هذا الأثر فتوقت الصلة منذ عهد مبكر بينها وبين المنطق والفلسفة ، وأخذت هذه الصلة تزداد قرنا بعد قرن حتى بلغت أوجها في القرن السادس وما بعده على يدى السكاكي وتلاميذه^(٩) . وهذه الصلة الواضحة جعلت أحد الباحثين المحدثين - وهو الاستاذ أمين الخولي - يقول إننا لو أمعنا النظر ومضينا في التقصي لوجدنا تأثير البلاغة بالفلسفة وفروعها من المنطق والكلام قويا بعيد المدى في نشأة البلاغة وظهورها ، وفي تطورها وسير دراستها ، وفي ضبط أبحاثها وتحديد دائرة درسها ، وفي تعين غرضها وغايتها^(١٠) .

وأهم خصائص المدرسة الكلامية الاهتمام بالتحديد والتعريفات والتقييم المنطقي والاهتمام بكون التعريف جاماً مانعاً ، ثم استعمال أساليب الفلسفة والمنطق في تحديد الموضوعات وتقسيمها وحصرها واستعمال الالفاظ الفلسفية والمنطقية^(١١) . وقد ساق البلاغيون كثيراً من المقولات عند القول في الملكة حين وردت في تعريف الفصاحة والبلاغة ، وما صدروا به البيان من أبحاث الدلالات الوضعية والعقلية^(١٢) ، وأدخلوا فيها بعض مسائل الفلسفة

(٩) تنظر مقالة أثر الفلسفة في البلاغة لاحمد مطلوب المنشورة في مجلة المعلم الجديد في المجلد الرابع والعشرين من الجزء الثاني ١٩٦١م .

(١٠) تنظر مقالة البلاغة العربية وأثر الفلسفة فيها لامين الخولي المنشورة في صحيفة الجامعة المصرية العدد الخامس مايو ١٩٣١ ص ٢٤

وكتاب منهاج تعليمي في النحو والبلاغة والتفسير للخولي ص ١٤٩ .

(١١) ينظر فن القول للخولي ص ٨٦ ، وكتاب دروس في البلاغة وتطورها للدكتور جميل سعيد ص ٧٦ وما بعدها .

(١٢) ينظر الإيضاح للقرزوييني ص ٩ ، وص ٢١٢ - ٢١٣ (ط محمد محبي الدين عبدالحميد بالقاهرة) ، كما ينظر في مفتاح العلوم للسكاكى ، بحث التشبيه وتقسيم علم البيان الى مباحثه وموضوعاته المختلفة .

الطبيعية والالهية والخلقية كالكلام في الالوان والطعوم والروائح والحواس الانسانية ومقرها والوهم والخيال والمفكرة والحس المشترك والاسباب والمسبيات وغيرها ، وأدخلوا فيها من الالفاظ الفلسفية والكلامية المحمول والموضع والايجاب والسلب وغير ذلك من المصطلحات التي لا علاقتها لها بالبلاغة بقدر علاقتها بالعلوم العقلية الاخرى ٠

لقد حددوا البلاغة بهذه المقاييس وضيّقو أبحاثها بهذه الاعتبارات العقلية التي ازهقت روح البلاغة وحالتها قواعد جامدة لا حياة فيها ، وبذلك نشأ الجدل الغيف والنقاش الحاد في كتب البلاغة فأخرجها عن هدفها الفنى ٠ ومن يقرأ كتب المؤخرين والشرح بصورة خاصة ، يجد هذه الظاهرة واضحة جلية ويجد أن أحكام المدرسة الكلامية أحکام بعيدة عن الروح الادبية المعتمدة على الذوق الادبي والاحساس الفنى الصادق ٠

ومن شواهد الانحر الفلسفى في هذه المدرسة الاقلال من الشواهد والامثلة الادبية وذلك لأن رجالها اهتموا بالتحديد المنطقى والحصر والتقييم فكانوا يذكرون لكل قاعدة شاهدا واحدا او مثلا قصيرا ، وأحيانا يذكرون أكثر من مثال أو شاهد ٠ وليتهم وقفوا عند هذا الحد فكتيرا ما يذكرون أمثلة لا جمال فيها لأن صحة الشاهد أو المثال عندهم أصل كل شيء ، أما جماله وما يبعث في النفس من احساس أو شعور ففي ذلك ما لم يوجهوا عنايتهم إليه ٠ ولنذكر مثلا واحدا يبين وجة نظرنا وما نذهب إليه ٠ ذكر السكاكي - وهو رأس المدرسة الكلامية - ان من جهات الحسن رد العجز الى الصدر ومثل له يقول الشاعر :

مشتهر في علمه وحلمه	وزهذه وعهده مشتهر
في علمه مشتهر وحلمه	وزهذه وعهده مشتهر
في علمه وحلمه وزهذه	مشتهر وعهده مشتهر
في علمه وحلمه وزهذه	وعهده مشتهر مشتهر ^(١٣)

ولا ندرى أى معنى في هذه الابيات ، وأى ذوق يقبلها ، وأى نفس

(١٣) مفتاح العلوم للسكاكى ص ٢٠٣ ط الاولى سنة ١٩٣٧
بالقاهرة ٠

ترتاح اليها؟ أين هذه الآيات من قوله تعالى: «وجزاء سيئة، سيئة مثلها»،
وقوله: «انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض، وللآخرة أكبر درجات وأكبر
تفضيلاً»، وقوله: «قال لهم موسى: ويلكم لا تقرروا على الله كذباً فيسخنكم
بعذاب وقد خاب من افترى» أو قول عمر بن أبي ربيعة:

واستبدت مرة واحدة إنما العاجز من لا يستبد

وغير ذلك من جميل الكلام وبديع الشعر •

لقد أفسد السكاكي واضر ابه هذا الفن البديع وأحالوه الى لعب
بالالفاظ مع أن ابن المعتز عده من أبواب البديع الخمسة • ولعل اهتمام
البلغيين المتأخرین بالاختصار وتلخيص الكتب المقدمة ، كان سبباً في
القلال من الشواهد والامثلة والاكتفاء بأقلها وأقصرها ، وبما ينسجم مع
أذواقهم التي سلطت عليها الصنعة الكلامية والبدعية ، وبذلك بقى تمثيلهم
منحصراً في الجملة او الجملتين ولم يتجاوزها إلى القطع الطويلة التي تكون
وحدة فنية وتصور صوراً كاملة لها معناها الواضح وتأثيرها العظيم •

وقد شاعت المدرسة الكلامية في المناطق الشرقية من الدولة الإسلامية
حيث يقطن خليط من الفرس والترك والتر ومن اليهم من الأقوام غير
العربية ، وكانت خوارزم أكبر المناطق التي ظهر فيها أقطاب هذه المدرسة
كجبار الله الرمخشري (٥٣٨هـ) صاحب (الكشف) ، وفخر الدين الرازي
(٦٠٦هـ) مؤلف (نهاية الإيجاز في دراية الاعجاز) ، وأبي الفتح ناصر
ابن المكارم المطرزى (٦١٠هـ) مؤلف كتاب (الايضاح) في شرح مقامات
الحريري ، والسكاكى (٦٢٦هـ) صاحب مفتاح العلوم ، وسعد الدين التقيانى
(٧٩٢هـ) شارح تلخيص مفتاح العلوم للخطيب القزويني • وقد استطاعت
هذه المدرسة السيطرة على الدراسات البلاغية بعد الشيخ عبد القاهر الجرجانى
وبلغت ذروتها في عصور الشرف والتلخيصات •

وأهم كتب المدرسة الكلامية: (نقد الشعر) لقديمة بن جعفر
(٣٣٧هـ) ، و (نقد النثر) المنسوب إلى قديمة* ، و (دلائل الاعجاز)

* إن كتاب نقد النثر المنسوب إلى قديمة بن جعفر هو كتاب (البرهان
في وجوه البيان) لأبي الحسين اسحاق بن ابراهيم بن سليمان بن وهب
الكاتب ، وسنصدره محققاً هذا العام •

لعبدالقاهر الجرجاني (٤٧١ أو ٤٧٤هـ) ، و (الإيجاز في دراية الأعجاز) لفخر الدين الرازي (٦٠٦هـ) ، و (مفتاح العلوم) للسكاكى (٦٢٦هـ) ، و (المصباح في اختصار المفتاح) لبدر الدين بن مالك (٦٨٦هـ) ، و (تلخيص المقح) و (الايضاح) لجلال الدين الخطيب القزويني (٧٣٩هـ) ، و (عروس الافراح في شرح تلخيص المقح) لبهاء الدين السبكى (٧٧٣هـ) ، و (المطول على التلخيص) و (المختصر) لسعد الدين التفتازانى (٧٩٢هـ) ، و (مواهب الفتاح في شرح تلخيص المقح) لابن يعقوب المغربي (١١١٠هـ) ، وغيرها من الكتب التي سارت على منهج السكاكى وهى كثيرة جداً تشمل جميع تلخيصات مفتاح العلوم وشروحه *

(٣)

ولعبت عوامل كثيرة في نشأة البلاغة العربية وتطورها إلى جانب الفلسفة والنطق وعلم الكلام ، وكان من أهم هذه العوامل القرآن الكريم الذي طبع أبحاث البلاغة بطبع أدبي ، ويتجلّ هذا في كثرة الشواهد التي اقتبسها البلاغيون من القرآن *

وكان للكتاب أثر واضح في البلاغة أيضاً ، فقد صبغوا كثيراً من مباحثها بصبغة أدبية لما امتازوا به من أدب جم وذوق سليم * يقول الجاحظ عنهم : « طلبت علم الشعر عند الأصمى فوجده لا يحسن إلا غريبه فرجعت إلى الأخفش فوجده لا يتقن إلا اعرابه فعطفت على أبي عبيدة فوجده لا يتقن إلا ما اتصل بالأخبار وتعلق بالأيام والأنساب فلم أظفر بما أردت إلا عند أدباء الكتاب كالحسن بن وهب ومحمد بن عبد الملك الزيات »^(١٤) * . وقال عنهم أيضاً : « أما أنا فلم أر قط أ مثل طريقة في البلاغة من الكتاب فانهم قد التمسوا من الالفاظ ما لم يكن متوعراً وحشياً ،

(١٤) العمدة لابن رشيق ج ٢ ص ١٠٦ ، ط محمد محى الدين عبدالحميد الثانية ١٩٥٥ م *

ولا ساقطا سوقيا »^(١) .

ولعب الشعراء دورا هاما في البلاغة ، وليس ابن المعتز الشاعر العباسي الا واحدا من اولئك الذين وضعوا اللبنات الاولى للبلاغة وأرسوا قواعدها . يقول ابن المعتز نفسه عنهم وهو يتحدث عن البديع : « البديع اسم موضوع لفنون من الشعر يذكرها الشعراء ونقاد المتأدبين منهم ، فاما العلماء باللغة والشعر القديم فلا يعرفون هذا الاسم ولا يدركون ما هو »^(٢) .

وقد طبعت هذه المؤثرات - القرآن الكريم والكتاب والشعراء - البلاغة بطبع أدبي وكان نتيجة ذلك ان اتجهت البلاغة اتجاهها آخر وسلكت طريقا بعيدا عن المدرسة الكلامية ، وهذا الاتجاه الذي سارت البلاغة فيه هو الذي أرسى قواعد المدرسة الأدبية ووطد أركانها وثبت أصولها .

ومن خصائص هذه المدرسة عدم الاهتمام بالتحديد والتقييم اهتماما كبيرا ، وان جنحت الى ذلك فعلى غير تعمق ونفذ والتزام للتصحيح التام للأصول المنطقية فيه الا أن يكون شيء من ذلك أثرا لعدوى المدرسة الكلامية^(٣) . كما انها لم تهتم باقتباس المنطقيات وسائل الفلسفة بل بذاتها وحملت عليها وحاربتها ، وكان ضياء الدين بن الاثير أحد أقطاب هذه المدرسة ممن حملوا حملة عنيفة على الفلسفة ورأى في رجالها من أمثال ابن سينا والفارابي رجالا أضلهم ارسطو وأفلاطون ، يقول : « اعلم ان المعانى الخطابية قد حضرت أصولها ، وأول من تكلم في ذلك حكماء اليونان غير أن ذلك الحصر كلي لا جزئى ، ومحال أن تحصر جزئيات المعانى وما يتفرع عليها من التعريفات التى لا نهاية لها . لا جرم ان ذلك الحصر لا يستفيد بمعرفته صاحب هذا العلم ولا يفتقر اليه ، فان البدوى البدى راعى الابل ما كان يمر شىء من ذلك بفهمه ولا يخطر بباله ومع هذا فانه كان يأتي بالسحر الحال ان قال شعرا أو تكلم ثرا »^(٤) .

(١) البيان والتبيين ج ١ ص ١٣٧ .

(٢) البديع لابن المعتز ص ٥٨ ط كراتشفسكي .

(٣) ينظر فن القول للخولي ص ٩٣ .

(٤) المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر لابن الاثير ج ١ ص ٣١٠ ط محمد محى الدين عبدالحميد بالقاهرة .

ومن خصائصها أنها تستعمل المقاييس الفنية في الحكم على الأدب لذلك نجد لها مرة تستطيع التعليل ومرة لا تستطيع ذلك وترجعه إلى الذوق والاحساس الفني ، ولذا فهي تعنى بالبحث عن الجمال وتقول : « هذا جميل وهذا أجمل منه ، وهذا بالغ حد الاعجاز بجماله ، وهذا قبيح وهذا أقبح »^(١٩) . كما أن أسلوب كتبها وتعابيرها سهلة مفهومة لا تحتاج إلى عناية كبيرة في فهمها كما يحتاج في قراءة كتب المدرسة الكلامية التي كثيراً ما يقف الباحث أو القارئ على نص أو تعريف وقفه طويلة يحاول فيها فهم ما يرمي المؤلف إليه ، وسبب ذلك أن معظم رجال المدرسة الأدبية عاشوا في بيئات عربية كالعراق والشام ومصر ، وكانوا إلى جانب ذلك شعراء أو كتابا لهم ذوق أدبي واحساس فني صادق ، فالباحث مع كونه معتزلياً متكلماً كان أدبياً كبيراً ، وأبا بن المعتر كان شاعراً أصيلاً ، وأبا هلال العسكري وعبدالقاهر الجرجاني وضياء الدين بن الأثير وغيرهم كانوا كتاباً ممتازين لهم أسلوبهم في الكتابة ، ولهم طابعهم الخاص . أما رجال المدرسة الكلامية فقد عاشوا في بيئات تركية أو فارسية فغلبت على كتبهم العجمة وعلى أساليبهم التعقيد واللغز الذي يحتاج إلى تأمل ووقف طويلاً ، أضعف إلى ذلك أن معظمهم لم يشتهر بالشعر أو الكتابة وإنما اشتهر بالمنطق وعلم الكلام والاهتمام بالعلوم العقلية البعيدة عن الأدب وروحه .

وأكثر رجال المدرسة الأدبية أكتاراً مسرفاً من الشواهد والأمثلة الأدبية نثراً وشبراً ، وكانوا غالباً ما يذكرون القاعدة بسطر أو سطرين ويأتون بأمثلة تتجاوز الصفحات . ولم تكن أمثلتهم مقصورة على الجملة أو بيت الشعر وإنما تعدتها إلى القطعة الشعرية والى الرسالة الأدبية ، ويتبين هذا في جميع كتب المدرسة ، فأبا بن المعتر مثلاً يذكر تعريف الاستعارة أو الجناس ويورد بعد ذلك أمثلة عديدة ويفرق بين حسنها وردتها ، ونرى أبا هلال العسكري يتبع هذه الطريقة أو هذا المنهج في ذكر الأمثلة وإن

(١٩) ينظر كتاب دروس في البلاغة وتطورها للدكتور جميل سعيد
ص ٩١

استفاد من المنهج الكلامي والعلقى فى التقسيم والحصر والتبويب ، فهو يسوق فى المقام الواحد عشرات الأمثلة والشواهد من القرآن الكريم والحديث وكلام العرب شعرا ونثرا ، ويعتمد فى النقد على الذوق غير مكتف بالصحة العقلية كرجال المدرسة الكلامية .

ومما يلفت نظر الباحث ان المدرسة الادبية كان لها مركز كبير في القرن السادس الهجرى الذى سادت فيه العقلية المنطقية وجاحت فيه أذواق المؤلفين والكتاب نحو الجمود والتقليد . ومن أعلامها فى هذا القرن وما بعده خياء الدين بن الأثير الذى يعد قمة المدرسة الادبية لانه بحث البلاغة بحثا أدبيا وابتعد عن المنهج الكلامي وادخال الفلسفة وعلم الكلام فيها ، وكان كتابه (المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر) وكتابه (الجامع الكبير) من خيرة الكتب الذوقية لما اشتغلت عليه من نصوص أدبية رفيعة ولما امتازت به من ذوق سليم يميز الاساليب المختلفة . ومنهم ابن أبي الاصبع المصرى الذى لم تؤثر فيه المدرسة الكلامية كثيرا فكان كتابه (بديع القرآن) وكتابه (تحرير التجير) من أطاف الكتب التى تمثل مدرسة مصر البلاغية .

وقد سادت المدرسة الادبية فى المناطق الوسطى من الدولة الاسلامية أى فى المناطق العربية كالعراق والشام ومصر وشمال أفريقيا . وأهم كتبها التى تضمنت حركتها وآراءها وأصولها : (كتاب البديع) لابن المعتر (٢٩٦هـ)، و (كتاب الصناعتين) لأبي هلال العسكري (٣٩٥هـ) ، و (العمدة في محسن الشعر وآدابه ونقده) لابن رشيق القيروانى (٤٦٣هـ) ، و (سر الفصاحة) لابن سنان الخفاجى (٤٦٦هـ) ، و (أسرار البلاغة) لعبدالقاهر الجرجانى (٤٧١هـ أو ٤٧٤هـ) ، و (البديع) لاسامة بن منقذ (٥٨٤هـ) ، و (المثل السائر) و (الجامع الكبير) لابن الأثير (٦٣٧هـ) ، و (بديع القرآن) و (كتاب تحرير التجير) لابن أبي الاصبع المصرى (٦٥٤هـ) . وقد عد الاستاذ أمين الخلوي من رجال هذه المدرسة بهاء الدين السبكي

(٢٠) ، ولكننا لا نتفق معه فيما ذهب إليه كل الاتفاق لأن كتاب (عروض الأفراح في شرح تلخيص المفتاح) للسبكي ليس فيه من الروح الأدبية كما في كتب ابن الأثير وابن أبي الأصبع المصري وغيرهما ، لا في منهجه ولا في مادته ، فقد حشر المؤلف في الكتاب مسائل كثيرة لا صلة لها بالبلاغة وأكثر من علم الأصول أكثرًا عظيمًا وذكر تقسيمات عديدة ينفر منها القارئ وتبعث في نفسه السأم ، ومع ذلك فالمؤلف ينقد أهل الشرق وطريقتهم في البلاغة ويقول عن أهل بلاده : « أما أهل بلادنا فهم مستقون عن ذلك بما طبعهم الله تعالى عليه من الذوق السليم والفهم المستقيم والاذهان التي هي أرق من النسيم وألطف من ماء الحياة في المحييا الوسيم . أكسهم النيل تلك الحلاوة وأشار إليهم بأصابعه فظهرت عليهم هذه الطلاوة فهم يدركون بطبعهم ما أفت فيهم العلماء – فضلاً عن الأغمار – الأعمار ، ويرون في مرآة قلوبهم الصقيقة ما احتجب من الأسرار خلف الاستار »^(٢١) .

ولكنه بالرغم من احساسه بهذه الحقيقة لم يسر على المنهج الأدبي الذي يتعد عن حشر الفلسفة ومسائلها في البلاغة ، واتجه اتجاه المدرسة الكلامية في تقسيم البلاغة إلى معانٍ وبيانٍ وبديعٍ وفي إدخال علم الأصول وعلم المنطق والفلسفة في مباحثها ، وفي اهتمامه بالتقسيم العقيم^(٢٢) .

(٢٠) تنظر مادة (بلاغة) في دائرة المعارف الإسلامية (ط عربية) مجلد ٤ ص ٦٩ وكتاب مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب لامين الغولي ص ٢٦١ .

(٢١) عروض الأفراح – شروح التلخيص ج ١ ص ٥ .

(٢٢) نقول هذا ونحن نعلم أن كتاب السبكي خير كتاب يمثل مدرسة مصر البلاغية لأنه جمع بين المدرستين الأدبية والكلامية ، وسنشرح هذه المسألة بالتفصيل في البحث الذي نعده للدكتوراه عن (الخطيب القرزي : جهوده وأثره في البلاغة والنقد) .

هاتان هما المدرستان البلاغيتان ، وقد رأينا أن كل واحدة منهما امتازت بخصائص معينة ، وكان لها رجالها وكتبها الخاصة ، ولكن هل يمكن أن نضع حدا فاصلا بين الذين اتبعوا الطريقة الادبية والذين نهجوا سيل المدرسة الكلامية ؟ ليس من الممكن هذا – بالطبع – فكثيرا ما يمزج البلاغى الواحد بين الطريقتين ويستفيد من المدرستين ، فابحاظ – مثلا – وهو رأس فرقه اعزالية سميت « الجاحظية » ، نراه يميل الى الناحية الادبية ويحكم النوق فى كثير من الاحيان ، وأبو هلال العسكرى مع تأكيده انه لن يتبع طريقة المتكلمين نراه يتوجه نحوهم فى تقسيماته وتبوئه ويجرى فى مضمارهم ويخدم أغراضهم وبذلك لم تخلص الطريقة الادبية فى أبي هلال ، أو لم يخلص أبو هلال للطريقة الادبية ولم ينفع من أثر المتكلمين . وكان عبدالقاهر الجرجانى يميل مرة الى المدرسة الكلامية فى كتابه (دلائل الاعجاز) ، ويتوجه الى المدرسة الادبية فى كتابه (أسرار البلاغة) ، فهو فى كتابه الاول يجادل جدلا منطقيا فيكرر أساليب المناقشين الجدليين مثل : « ان قلتم قلنا ۰۰۰ » و « كيف لا يكون الامر كذلك ۰۰ » و « ما هو الا كذا وكذا ۰۰ » وغير ذلك . ولا عجب فى هذا فالرجل فى دلائل الاعجاز ينافس الذين لا يؤمنون باعجاز القرآن وما فيه من سحر وروعة وبلاغة ، وليس أمامه الا أن يتبع هذه الطريقة الجدلية فى اقناع الخصوم . وهو فى كتابه الثاني أديب بلغ يعمد الى التحليل الفنى وابراز ما فى الكلام من بلاغة وجمال ، ولم يكن فى هذا الكتاب ما يدعو الى الاستعانة بالاساليب الجدلية والمنطقية ؟ لانه ليس بصدق البرهنة على اعجاز القرآن والرد على الطاعنين فى بلاغته .

ومن استطاعوا أن يجمعوا بين المدرستين فى كتاب واحد يحيى بن حمزة العلوى (٧٤٩هـ) فى كتابه (الطراز المتضمن لاسرار البلاغة وحقائق الاعجاز) ، فهو فى القسم الاول من الكتاب يسير على منهج أدبي واضح

فيه التحليل وفيه الاكتثار من الامثلة ، وهو في القسم الثاني يتبع طريقة المدرسة الكلامية في تصنيف مسائل البلاغة وتقسيمها إلى معانٍ وبيانٍ وبديع ، ولكنه مع ذلك يكثر من الامثلة والتحليل . وكتاب الطراز من خيرة كتب البلاغة في القرن الثامن وأمتعها لو لا اكتثار مؤلفه من التقسيمات التي يضيع القارئ فيها أحياناً . ولكن هل بقيت البلاغة العربية على هذه الحال ؟

لقد أُعجب الناس بكتاب (مفتاح العلوم) للسكاكى (٦٢٦ھ) فطفقوا يؤلفون الشروح والتلخيصات ويضعون الحواشى والقرارات عليه ، وبذلك اتجهت الدراسات البلاغية وجهة ما كان لها أن تتجه إليها لو لا أثر هذا الكتاب ولو لا موت الموهوب وضعف الملوك الأدبية بعد أن نكب العلaman العربي والاسلامي نكبات كثيرة ، وبعد أن اجتاحت البلاد عواصف مدمرة هبت من الشرق متسحة كل حضارة وعمران .

لقد كانت البلاغة قبل أن يسيطر منهاج السكاكي حرفة طلقة يغلب عليها الطابع الأدبي ويلف مباحثها روح يعتمد أول ما يعتمد على الذوق وحسن الادراك ، وكانت للباحثين اصالتهم في التأليف ولهم منهجهم الخاص بهم في البحث ، فلابن المعتز منهجه وأسلوبه ، ولقدامة بن جعفر طابعه الخاص ، ولأبي هلال العسكري طريقته الواضحة ، ولعبدالقاهر الجرجاني أسلوبه ومنهجه ولضياء الدين بن الأثير وجهته الخاصة في التأليف . ولم تبق مناهج البحث في البلاغة مختلفة باختلاف المؤلفين فقد صبّت كلها في قالب جديد في أواخر القرن السادس الهجري وأوائل القرن السابع فكان (مفتاح العلوم) الذي اتجه فيه مؤلفه وجهة جديدة فيها تحديد وتقسيم وفيها ضبط منطقي جاف لمسائل البلاغة ومباحثها . وسيطر الكتاب على مجالس العلم والتدريس حتى كادت البلاغة تتحضر بعده لو لا بعض القبسات التي أرسلها حمزة بن يحيى العلوى (٧٤٩ھ) في كتابه الطراز ، وابن قيم الجوزية (٧٥١ھ) في كتابه الفوائد . ولكن هذين الكتابين لم يستطيعاً أن يقفا بوجه تيار السكاكي ولم يقدراً أن يسيطرَا على مناهج درس البلاغة يومذاك ، فقد ظهر قبلهما بقليل كتاب (المصباح) لبدرالدين بن مالك

(٦٨٦هـ) وهو أول تلخيص لمفتاح العلوم وصل الينا^{*} ، وظهر في زمانهما كتاباً للتلخيص والإيضاح لمحمد بن عبد الرحمن جلال الدين الخطيب الفزويي (٧٣٩هـ) فانصرف الناس إلى الكتب الثلاثة وكادوا ينسون ما كان للعرب من تراث بلاغي ضخم ٠

وأشغل الناس بمفتاح العلوم وشرحه وتلخيصاته وحواشيه وتقرياته وإنك الاستاذة يدرسونها مع ما فيها من جفاف الفلسفة وما فيها من بعد عن الأدب وروحه الفنية . وقد كان لكتابي الخطيب الفزويي صولة في ميدان البلاغة في المناطق الشرقية من العالم الإسلامي كالعراق وايران والهند ، وكان المصباح لبدر الدين بن مالك قبلة طلاب البلاغة في بلاد المغرب . وكثرت الشروح والتلخيصات على هذه الكتب كثرة لم ينلها كتاب من قبل ، وكانت نتيجة انصراف الناس إلى هذه الكتب واهتمام كتب البلاغة الأخرى ، ان ماتت الموهاب وذهبت الملائكة الأدبية التي تحس بالكلام الجميل ، واصبح العاكس عليها لا يستطيع أن يعبر تعيراً صحيحاً أو ينشئ جملة فصيحة ، حتى يرى أن أحد الاستاذة عكف على مفتاح العلوم وتلخيصاته وشرحه أربعين سنة درساً وتدريساً فلما طلب منه أحد الولاة أن يقول كلمة في حفلة أو اجتماع لم يستطع ذلك الاستاذ أن يفصح عما في نفسه وإن يعبر تعيراً صحيحاً ٠

وليت المتأخرین استفادوا من مفتاح العلوم كثيراً ، فقد كان في قلم مؤلفه انارة من الأسلوب الأدبي الذي درج عليه من سبقه من المؤلفين في البلاغة ، ولكنهم كادوا يهملونه اهتماماً عظيماً بانصرافهم إلى تلخيصاته وشرحه التي لم تهتم بالذوق والأسلوب الجيد كما اهتمت بالجدل والنقاش وبذكر ما لا يمت إلى الفنون الأدبية بأدنى صلة . وبقيت البلاغة على هذه الحال وبقى الاستاذة لا يخرجون عما رسمه لهم السلف كالسكاكى والخطيب الفزويي والتفازانى والسبكي وغيرهم حتى أطل فجر النهضة الحديثة على أمّة العرب فأحسن الناس أنه لا بد أن تغير طرائق التدريس ولا بد أن تتجدد

* لقد خص السكاكى نفسه القسم الثالث من مفتاح العلوم بكتابه (التبیان) ولكن لم نعثر عليه .

مناهج البحث والتأليف ، فأخذ الدارسون يحيون تراثهم ويخرجون بهؤلئك فيها طرافة وفيها تجديد مستعينين بحضارتهم الثالثة ومقتبسين من الغرب حضارته الطارفة وما فيه النفع وانارة السبيل . ولكن البلاغة مع ذلك لم تحظ بدراسات كثيرة بالرغم من انصراف كثير من الباحثين الى تراثنا الادبي ، فما يزالون لا يقدمون على هذا الفن اقدامهم على دراسة الادب وفنونه المختلفة ، ولعل سبب ذلك ما وصلت اليه البلاغة من حال يدعو الى العزوف عن البحث فيها والانصراف الى غيرها . وكان الازهر الشريف أول من حمل لواء التجديد في البلاغة وذلك بأن قيض الله لها الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده - رحمة الله - الذي أخذ يحيى كتب السلف النافعة وعلومهم ويقوم ما اعوج من مناهج التأليف وطرق التدريس . فقد انصرف الشيخ محمد عبده الى تدريس كتابي دلائل الاعجاز وأسرار البلاغة لعبدالقاهر الجرجاني ، وبذلك فتح أذهان الطلبة وقوى مداركهم ومواهفهم لأنهم وجدوا في تدريس الامام غير ما ألفوه . وبذلك كان الجامع الازهر أول معهد من معاهد التعليم الاسلامي والعربي قرئ فيه دلائل الاعجاز وأسرار البلاغة - بعد الفتوة الطويلة - درسا لطلاب البلاغة ، ولأجله طبع الكتابان وانتشرتا . ويدو ما ذكره الاستاذ محمد رشيد - منشى مجلة المنار بمصر - في مقدمة الطبعة الثانية (مصر ١٣٣١هـ) من كتاب دلائل الاعجاز ان العلماء أحجموا عن تدريس الكتابتين بعد الاستاذ الامام مع انهما كانا مقررين للتدريس في الجامع الازهر رسميا .

ومع ما بذل الامام محمد عبده من جهود عظيمة في بirth البلاغة واحتياطها ، لم يؤلف كتابا ينحو فيه منحى أدبيا بعيدا عن منحى الفلاسفة وأصحاب المنطق ، ولعل الاستاذ علي عبدالرازق كان من أوائل الذين انصرفوا الى البحث في البلاغة وتاريخ فنونها ، فقد كتب كتابه (أمالى على عبدالرازق في علم البيان وتأريخه) ، ولكن هذا الكتاب لم يشمل البلاغة كلها وإنما اقتصر على أحد فنونها وهو علم البيان ، ولم يكن الكتاب عميقا بعيدا الاثر لأن مؤلفه - كما يبدو - كان يميله على طلابه املاء ، ولم

يُكَلِّنُ لِهِ الْوَقْتُ الْكَافِي لِتَقْيِحِهِ وَأَكْمَالَهُ وَشَرْحَ مَا أَوْجَزَهُ فِيهِ لَا شَغَالَهُ
بِأَمْوَارٍ أُخْرَى (٢٣) .

وقد تخرج في الأزهر الشريف في مطلع العصر الحديث جيل فيه
عزم على البحث وفي روحه اندفاع إلى التجديد ، وانشئت دار العلوم فكان
بعض هؤلاء الطلاب أستاذة فيها حملوا دعوة الإمام محمد عبده والاستاذ علي
عبدالرازق وغيرهما ، وبذلك كانوا رواد البحث في البلاغة .

ومن الكتب المؤلفة في فجر النهضة كتاب (حسن الصنيع في المعاني
والبيان والبديع) للاستاذ الشيخ محمد البسيوني (١٩١٣م) ، وكتاب (زهر
الربيع في المعاني والبيان والبديع) للاستاذ الشيخ أحمد الحملاوي (١٣٥١هـ)
وكتاب (دروس البلاغة) لحفني ناصف وزملائه . وهذه الكتب - وان
اختلف ترتيبها وتتنوع تبويبها - فهي تتحوّل منحى ما كتبه صاحب التلخيص
وشرّاهه ، وهي ليست كتاباً في بحث البلاغة بحثاً جديداً أو وضع الخطوط
الرئيسية لبحثها وإنما هي - كما قلنا - كتب كان الهدف منها تفسير مباحث
البلاغة وموضوعاتها وتقديمها مرتبة مهدبة للطلاب .

وكان الاستاذ أحمد مصطفى المراغي من خيرة أستاذة دار العلوم في
بحث البلاغة فقد ألف كتاب (علوم البلاغة) جمع فيه بين طريقتي الجرجاني
والسكاكى ، كما ألف كتاباً أخرى منها كتاب (تاريخ علوم البلاغة والتعرف
برجالها) وهو بحث موجز في تاريخ البلاغة وترجمة أهم رجالها ، ولكن
فيه مع ذلك آراء قيمة في تقدّم منهج السكاكى وطريقته . وله كتاب (بحوث
وآراء في علوم البلاغة) وهو في الواقع ليس إلا المباحث التي ذكرها فيما
بعد مبوءة مرتبة في كتابه المتقدم ، وان اختلفت طريقة العرض والتأليف .
وللشيخ عبدالهادى العدل كتاب (دراسات تفصيلية شاملة لبلاغة

(٢٣) يقول في ص ٨٢ من كتابه الامالي (ط القاهرة ١٣٣٠هـ - ١٩١٢م) وهو يتحدث عن التشبيه : « ولكن البحث طويل عريض يحتاج
إلى برهة من الزمن كافية فيه ، ولم يبق لي من الوقت ما يسع ذلك ، فقد
قرب موعد رحلتى - إن شاء الله تعالى - إلى بلاد الانجليز ، والله أسأل أن
يبارك لي في السفر والإقامة ويكتب لي الغنم والسلامة . وإذا قدر لنا أن
نعود إلى الاشتغال بهذا الفن رجواناً أن نتم ما بدأنا ولا كان أمره إلى غيرنا
وإلى الله عاقبة الأمور » .

عبدالقاهر في التشبيه والتقديم والتأخير) ، وهذا الكتاب - كما يتضح ليس الا توضيحاً لمنهج عبد القاهر الجرجاني في التشبيه والتقديم والتأخير . ونبغ كثيرون من متخرجى الازهر ودار العلوم ، فكانت لهم كتب فيها تجديد وفيها نزعة أدبية . ولما انشئت الجامعة المصرية قام أستاذتها يجددون في أبحاثهم مستهدفين بتراثهم القديم ومناهج الغربين ، وكان للبلاغة نصيب ليس بالقليل من هذا التجديد وتطبيق المناهج الحديثة والاستفادة مما وصل إليه الأوروبيون في العصر الحديث . ولعل الدكتور طه حسين كان من أوائل الذين نادوا ببعث البلاغة العربية وببحثها يهتم على تفهم مرامي القدماء وعلى الموازنة ، وعلى مقارنتها بلاغة اليونان وذلك ببحثه القيم (بيان العربي من الجاحظ إلى عبد القاهر) (الذى ألقاه في مؤتمر المستشرقين باللغة الفرنسية في ليدن ١١ سبتمبر (أيلول) ١٩٣١) ونشر مترجمًا بقلم الاستاذ عبدالحليم العابد في مقدمة كتاب (نقد النثر) سنة ١٩٣٣-١٣٥١هـ . وقد قرر الدكتور طه حسين أن بيان العربي في أول نشأته وفي عهد الجاحظ تبين فيه ثلاثة عناصر مختلفة هي : العنصر العربي والعنصر الفارسي والعنصر اليوناني ، وقد بلغ ذرورته على يدى الشيخ عبد القاهر الجرجاني ولم يتقدم بل أخذ على العكس من ذلك في التأثر والانحطاط . والشيء الجديد في هذا البحث أن الدكتور طه حسين أول من نبه إلى الأثر اليوناني في البلاغة وإلى أثر أرسطو الواضح فيها ، وبذلك قرر أن بيان العربي كان في جميع أطواره وثيق الصلة بالفلسفة اليونانية أولاً وبالبيان اليوناني أخيراً ، ولم يكن أرسطو المعلم الأول للمسلمين والعرب في الفلسفة وحدها ولكنه إلى جانب ذلك معلمهم الأول في علم البيان^(٢٤) .

(٢٤) لقد نشر الاستاذ أمين الخولي مقالته (البلاغة العربية وأثر الفلسفة فيها) في صحيفة الجامعة المصرية في العدد الخامس (مايو ١٩٣١م) وعلى هذا يكون أسبق من الدكتور طه حسين في التنبيه إلى أثر أرسطو في البلاغة العربية وأثر الفلسفة في مناهجها وطرائق بحثها ، ولكن استاذنا الدكتور شوقي ضيف أخبرنا بأن الدكتور طه حسين كان أسبق في التنبيه إلى هذا النوع من الدراسات بما كان يلقيه على طلابه في الجامعة من محاضرات وتجيئات منهجية ، ولاجل ذلك قدمنا ذكر الدكتور طه حسين مع اعتراضنا أن الاستاذ الخولي كان أكثر تأثيراً من غيره في هذا الموضوع .

وقد كان لهذا الرأى أثر كبير ، فأخذ الباحثون يتلمسون ما أوجزه الدكتور طه حسين ويقارنون بين بلاغة العرب واليونان ، فألف الدكتور ابراهيم سلامة بحثاً قيماً هو (بلاغة أرسطو بين العرب واليونان) ، أثبت فيه ما ذكره الدكتور طه ، وتبع البلاغة العربية منذ الجاحظ متلمساً أثر أرسطو ومواضحاً لهم العرب لكتابي الخطابة والشعر ، وقد خرج بتائج طيبة حتى كان كتابه - بحق - أهم بحث في هذا الميدان لولا وقوفه عند عبدالقاهر واهماله السكاكي وغيره من كان تأثير الفلسفة وعلم الكلام فيما أوضح وأكثر ظهوراً .

واشتغل الاستاذ أمين الخلوي في البلاغة وكان له أكبر الأثر في توجيه طلابه نحو البحث الحر بما ألقى من محاضرات وقدم من بحوث بحث (البلاغة وعلم النفس) و (مصر في تاريخ البلاغة) و (البلاغة العربية وأثر الفلسفة فيها) ، ومقالته عن البلاغة في دائرة المعارف الإسلامية ، وكتابه (فن القول) من أهم الكتب التي رسمت مناهج بحث الفن الادبي والبلاغة . والاستاذ الخلوي - بحق - رائد تجديد مناهج البحث في البلاغة في هذا العصر ، ومن ألمع المؤلفين الذين أثروا تأثيراً واضحاً في هذه الدراسات ، ويمكن القول إن كل من كتب بعده في البلاغة اهتدوا بهديه واقتدوا بأثره .

وكتب الاستاذ أحمد الشايب في البلاغة والنقد وآخر كتاب (الاسلوب) الذي يعد دراسة بلاغية تحليلية لأصول الاساليب العربية ، كما كتب (أصول النقد الادبي) الذي كان محاولة موفقة للجمع بين التراثين العربي والغربي في النقد وفهم مسائله .

وكان نتيجة الجهد الذى قدمها شيخوخ الأزهر وأساتذة دار العلوم والجامعة ان ظهرت دراسات جامعية في البلاغة لها أصالتها ولها أسلوبها الجديد ككتاب (البلاغة العربية فى دور نشأتها) للدكتور سيد نوفل ، وكتابي (أبو هلال العسكري ومقاييسه البلاغية) و (قدامة بن جعفر والنقد الادبي) للدكتور بدوى طبانة ، وكتابي (أثر القرآن في تطور النقد

العربي الى اواخر القرن الرابع الهجري) و (ضياع الدين بن الاثير وجهوده في النقد) للدكتور محمد زغلول سلام و (ابن أبي الاصبع المصري) للدكتور حفني محمد شرف . وحققت كتب بلاغية مهمة نال بها أصحابها درجات جامعية منها (الموازنة بين الطائفين) و (بديع القرآن) و (تحرير التحبير) الى جانب ما حقق خارج الجامعة من كتب مهمة كان لها اكبر الاثر في تفهم تيارات البلاغة العربية ومعرفة اتجاهاته ورجالها الاعلام .

وظهر اتجاه نفسي في دراسة الادب ونقده في السنوات الاخيرة ، ومن الابحاث المهمة في هذه الناحية مقالة (البلاغة وعلم النفس) لأمين الخولي اضافة الى ما ذكره - فيما بعد - في كتابه فن القول ، وكتاب (علم النفس الادبي) للأستاذ حامد عبدالقادر ، وكتاب (من الوجهة النفسية في دراسة الادب ونقده) للأستاذ محمد خلف الله . ونرجوه الا يطغى هذا التيار على البلاغة كما طغى المنطق والفلسفة وعلم الكلام عليها من قبل فأفسدها وأخرجها عن سبيلها .

أما في أقطار العالم العربي الاخرى فلم تحظ البلاغة باهتمام بالغ كما حظيت به فنون الادب الاخرى ، ففي العراق - مثلا - لم يؤلف الا كتاب (دروس في البلاغة وتطورها) للدكتور جميل سعيد ، وهو كتاب في تاريخ البلاغة وتطورها وفي الفصاحة ، وأطرف ما فيه القسم الثاني الخاص بالفصاحة فقد طبقها على الشعر الحديث كشعر الرصافى والزهاوى والجبوبى ، وكتاب (البلاغة عند السكاكي)^(٢٥) لكاتب هذا المقال وغيرها من المقالات . ولم يصلنا من المغرب الا كتاب (دلائل الاعجاز) بطبعته الغربية ، وفيه مقدمة طويلة عن تاريخ البلاغة كتبها محقق الكتاب الاستاذ محمد بن تلويت ، وهي مقدمة استعاز فيها كاتبها بما نشر أمين الخولي كما يعترف الكاتب نفسه وكما يتضح من قراءتها . وهناك مقالات قليلة نشرت في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق وغيرها من المجالات ولكنها على كل حال

(٢٥) رسالة نال بها المؤلف درجة الماجستير من كلية الآداب جامعة القاهرة بتقدير (جيد جدا) في أول شباط ١٩٦١ م .

لا تكون اتجاهها معينا ولا توضح جانبها مهما من جوانب البلاغة العربية
وتاريخها .

هذه أهم الدراسات البلاغية التي ظهرت في العصر الحديث ، ولكن ما أهم اتجاهاتها وماذا قصد أصحابها عندما وضعوها؟ وما موقفنا من البلاغة الان انتركمها كما كتبها السكاكي وشرح كتابه مفتاح العلوم ومختصروه ، أم نسعى جاهدين لبعث الروح في البلاغة من جديد؟

(٥)

لقد ارتفعت بعض الاصوات في هذا العصر تطلب تجديد البلاغة وترسم الخطوط العامة لدرسها واعادة الروح إليها ، ومن هذه الاصوات المخلصة الصادقة أصوات الاستاذة أمين الخولي وأحمد الشايب وعبدالله العلالي . قبل أن نبدى رأينا في المنهج الذي ينبغي أن نسير عليه في دراسة البلاغة، ينبغي أن نذكر آراء الثلاثة لأن لهم فضل السبق ورجاحة العقل والتفكير .

يرى الاستاذ أمين الخولي أن التقسيم القديم للبلاغة إلى المعانى والبيان والبديع لا أساس له ولا غاء فيه لأنه ينبغي أن يشمل البحث البلاغي : الكلمة والجملة والفقرة والقطعة لا البحث في الجملة والجملتين فقط ، وإن ما حشده طريقة العجم وأهل الفلسفة في البلاغة من مقومات منطقية واستطرادات فلسفية مختلفة ينبغي أن تبعد وتتضمن إلى البلاغة مكانها مقدمات جديدة لابد منها لدراسة فنية تقوم على الاحساس بالجمال والتعبير عنه . وهذه المقدمات تتعلق بعلم النفس وأثره في التعبير الادبي ، وبالوجودان وعلاقته بمظاهر الشعور من ناحية العمل الفنى ، وبالخيال والذاكرة والاحساس والذوق . ثم نبدأ بعدها بدراسة البلاغة دراسة جديدة تقوم على منهج صحيح بشرط أن لا نفرط بتراثنا وببلغتنا ؟ لأن التجديد ليس معناه هدم القديم

وانما هو البناء مستعين به وبما وصلت اليه الحضارة في هذه الايام^(٢٦) . وقد تجمعت جهود الخولي في كتابه (فن القول) الذي كان توجيهها منهجاً شاملاً لبحث البلاغة وخلق مدرسة بلاغية جديدة . ويرى ان مباحث فن القول ينبغي أن تقسم إلى ثلاثة أبواب هي : المبادئ والمقدمات والابحاث ، ندرس في المبادئ تعريف فن القول وغايته وصلته بغيره من الدراسات ، وندرس في المقدمات مقتبسات من القضايا النفسية التي تعينا كثيراً في فهم الأدب وتدوّقه والاحساس بما فيه من روعة وجمال . أما الابحاث فتضمّن البحث في الكلمة الواحدة من حيث هي عنصر لفوي وما فيها من جمال وجرس موسيقى له أثر في التعبير ، وتضم البحث في الجملة وما يحدّث فيها من تقديم وتأخير وحذف وذكر وايجاز واطنان ، وتضم البحث في الفقرة وما فيها من فصل ووصل وما تؤدي من صور ، وتضم البحث في صور التعبير كالتشبيه والاستعارة والكناية والرمز والإيحاء والتورية ، وتضم القطعة الأدبية وفيها تكلم عن عناصر العمل الأدبي وما بين اللفظ والمعنى من علاقة ، وأخيراً ندرس الاساليب الفنية في الأدب وأنواعها كالأسلوب الرمزي والفكاهي والتهكمي وغيرها . وبهذا المنهج الواسع الذي يشمل معظم مباحث البلاغة القديمة وكثيراً من الفنون الحديثة نستطيع أن ندرس البلاغة دراسة جديدة تقوم على تفهم الفن الأدبي ومقاييسه البلاغية والقدية .

اما الاستاذ أحمد الشايب فيرى ان موضوع البلاغة ينبغي ان ينحصر في بابين او كتابين هما : الاسلوب ، والفنون الادبية . فندرس في الاسلوب الكلمة والصورة والجملة والعبارة والاسلوب وأنواعه ، وندرس في الفنون الادبية مادة الكلام من حيث اختيارها وتقسيمها وتسويقها وقواعد

(٢٦) ينظر كتاب فن القول ص ٢١٥ - ٢٢٣ ، ومقالة البلاغة العربية وأثر الفلسفة فيها ص ١٧ ، ومقالة البلاغة وعلم النفس ص ١٤٨ ، ومادة (بلاغة) في دائرة المعارف الاسلامية (ط عربية) ج ٤ ص ٧٢ وكتاب مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والادب للخولي نفسه ص ١٤٣ ، ١٦٤ وما بعدها .

هذه الفنون كالقصة والمقالة والوصف والرسالة والمناظرة والتاريخ وغيرها من الفنون الادبية الاخرى^(٢٧) .

ويرى الاستاذ العلaili ان منهج البيان الجديد هو أن تلغى جميع مباحثه ومصطلحاته سوى التشيه والكناية أو الحقيقة والمجاز ونقسم كلها منها الى كناية وتجريد . أما علم المعانى فلما كان للغة بمتابة المنطق فيرى ان لا يدرس فى كتب القواعد كعلم بل يدرس على نهجه فى كتب الادب كما نجده عند عبدالقاهر فى دلائل الاعجاز وعند الزمخشري فى التفسير مع تهذيب مباحثه لتكون أدخل فى الذوق وأقرب مناطا بالنفس . ويدرس البديع كما يدرس علم المعانى^(٢٨) .

هذه آراء ثلاثة عرضناها لنتستطيع على ضوئها وضع الخطوط العامة لبحث البلاغة . ونرى ان منهج الخوى أقرب الى واقع البلاغة وواقع اللغة العربية لما امتاز به من جمع شتات مباحث البلاغة وتوزيعها توزيعا جديدا . ويلاحظ انه استفاد كثيرا من بلاغة السكاكي في رسم منهجه ووضع مباحثه وبالاخص فيما يتعلق ببحث الجملة . ولم يخرج رأى الشايب عن رأى الخوى في قسمه الاول الخاص بالاسلوب ، أما القسم الثاني فلا نرى موجبا لادخاله في البلاغة وإنما يكون موضعه دراسات خاصة تتعلق بالفنون الادبية المختلفة . أما رأى العلaili فنرى فيه قضاء على كثير من صور التعبير الادبية وابتعادا عن البلاغة العربية قد يحرمنا ما في تراثنا من فائدة في بناء البلاغة التي نريدها .

ونستطيع بعد ذلك ان نضع الخطوط الرئيسية للبحث البلاغي الجديد^(٢٩) ويكون بالغه التقسيم الثالثي واعتبار البلاغة كلها فنا واحدا ، وبيان تجاوز البحث في الجملة والجملتين فتضيق البحث في الكلمة وما فيها

(٢٧) ينظر كتاب الاسلوب لاحمد الشايب ص ٢٩ وما بعدها (ط الثالثة ١٩٥٢ م) .

(٢٨) ينظر كتاب مقدمة لدرس لغة العرب لعبدالله العلaili ص ٤٣ - ٤٥ .

(٢٩) تنظر مقالة رأى في البلاغة العربية لاحمد مطلوب المنشورة في العدد الاول من مجلة جمعية المؤلفين والكتاب العراقيين (١٩٦٢) .

من جمال وجرس موسيقى له أثره في التعبير ، والبحث في الجملة وما يحدث بين أجزائها من فصل ووصل ، وحذف وذكر ، وتقديم وتأخير ، وغير ذلك من المباحث الأخرى التي ذكرها السكاكي في علم المعاني ، والبحث في صور التعبير المختلفة كالتشبيه والاستعارة والكناية والتورية وغيرها من مباحث البيان والبديع التي لها قيمتها في التعبير وأداء المعاني ، والبحث في الفقرة والقطعة الأدبية والأساليب المختلفة ، مستفيدين مما ذكره القدماء كعبدالقاهر الجرجاني وضياع الدين بن الإثير والسكاكي وغيرهم . أما مصطلحات البلاغة فينبغي تقليلها والاكتفاء بأهمها وأدلتها على الأساليب العربية ، فالمجاز - مثلا ، لا حاجة إلى تقسيمه إلى أنواع كثيرة وإنما نكتفي ب التقسيمه إلى لغوي وعلقي كما فعل الجرجاني أو نعتبره لغويًا كله كما فعل السكاكي . ونكتفي في الاستعارة بمصطلحات قليلة ولتكن الاستعارة التصريحية والاستعارة المكنية ورد جميع أنواع الأخرى إلى هذين الأصلين . وننتم في بحث البلاغة بالناحية الأدبية وتحير الأمثلة والقطع الرائعة من القرآن الكريم وكلام العرب البليغ ، كما ننتم بتحليل الأمثلة تحليلًا أدبيا يعتمد على الأدراك والاحساس الفنى .

ولن تكون البلاغة مفيدة على هذا الوجه ما لم ينبع ما أدخله القدماء فيها من الفلسفة والأصول والمنطق وعلم الكلام ، مستعينين بعض الدراسات النفسية وما لها من أثر في الفن الأدبي ولكن لا إلى الحد الذي تتجاوز فيه البحث البلاغي فتطغى عليه كما طغى المنطق وعلم الكلام على بلاغة القدماء فأخرجها عن غايتها التي من أجلها بحثت ، وبذلك نبعث في البلاغة العربية الروح من جديد لتكون صالحة لنقد الأدب وانتقاده وتكون ملائمة للفن الأدبي المتطور .

هذه أهم اتجاهات البلاغة العربية قديماً وحديثاً ولعلنا استطعنا أن نكشف عن خطوطها العامة وتلمس معالمها الواضحة .

أحمد مطلوب

مراجع البحث*

- ١ - البلاغة وعلم النفس للاستاذ أمين الغولي . مقالة نشرت في مجلة كلية الآداب - جامعة القاهرة ، المجلد الرابع ، الجزء الثاني ديسمبر ١٩٣٦ .
- ٢ - مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والادب للاستاذ أمين الغولي . الطبعة الاولى ١٩٦١ بالقاهرة .
- ٣ - رسالة التفضيل بين بلاغتي العرب والعجم لابي أحمد الحسن بن عبدالله بن سعيد العسكري . مطبوعة في كتاب التحفة البهية والطرف الشهية . مطبعة الجوائب ١٣٠٢ هـ .
- ٤ - البيان والتبين للجاحظ . طبعة الاستاذ عبدالسلام هارون .
- ٥ - كتاب الصناعتين لابي هلال العسكري . الطبعة الاولى بالقاهرة ١٣٧١ هـ - ١٩٥٢ م ، تحقيق على محمد البعاوي ومحمد أبو الفضل ابراهيم .
- ٦ - الاسلوب للاستاذ أحمد الشايب . الطبعة الثالثة ١٩٥٢ م .
- ٧ - أصول النقد الادبي للاستاذ أحمد الشايب .
- ٨ - النقد للدكتور شوقي ضيف .
- ٩ - أبو هلال العسكري ومقاييسه البلاغية وتقديره للدكتور بدوى طبانة الطبعة الاولى .
- ١٠ - قدامة بن جعفر والنقد الادبي للدكتور بدوى طبانة . الطبعة الاولى .
- ١١ - أثر القرآن في نسأة البلاغة لاحمد مطلوب . مقالة نشرت في مجلة المعلم الجديد ببغداد في المجلد العادي والعشرين ، الجزء الثالث حزيران ١٩٥٨ .
- ١٢ - أثر القرآن في تطور النقد العربي الى اواخر القرن الرابع الهجري للدكتور محمد زغلول سلام .
- ١٣ - حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة للسيوطى .
- ١٤ - أثر الفلسفة في البلاغة لاحمد مطلوب . مقالة نشرت في مجلة المعلم الجديد ببغداد في المجلد الرابع والعشرين ، الجزء الثاني ١٩٦١ م .
- ١٥ - البلاغة العربية وأثر الفلسفة فيها للاستاذ أمين الغولي . مقالة نشرت في صحيفة الجامعة المصرية العدد الخامس مايو ١٩٣١ .
- ١٦ - فن القول للاستاذ أمين الغولي . الطبعة الاولى بالقاهرة .
- ١٧ - الايضاح للخطيب القزويني . طبعة محمد محبي الدين عبدالحميد بالقاهرة .
- ١٨ - مفتاح العلوم للسكاكى الطبعة الاولى بالقاهرة سنة ١٩٣٧ م .
- ١٩ - دروس في البلاغة وتطورها للدكتور جميل سعيد . طبعة بغداد .

* رتبت مراجع البحث حسب ورودها في المقالة .

- ٢٠ - العمدة لابن رشيق طبعة محمد محى الدين عبدالحميد الثانية ١٩٥٥
بالقاهرة .
- ٢١ - البديع لابن المعتز . طبعة كراتشيفسكي ١٩٣٥ .
- ٢٢ - المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر لضياء الدين بن الاثير . طبعة محمد محى الدين عبدالحميد بالقاهرة .
- ٢٣ - دائرة المعارف الإسلامية (مادة بlague) . الطبعة العربية .
- ٢٤ - عروس الأفراح فى شرح تلخيص المفتاح للسبكي مطبوع فى كتاب (شروح التلخيص) طبعة القاهرة .
- ٢٥ - أمالى على عبدالرازق فى البيان وتاريخه لعل عبدالرازق . طبعة القاهرة ١٣٣٠هـ - ١٩١٢م .
- ٢٦ - نقد النشر المنسوب الى قدامة بن جعفر . تحقيق الدكتور طه حسين وعبدالحميد العبادى .
- ٢٧ - مقدمة لدرس لغة العرب لعبدالله العلaili .
- ٢٨ - البلاغة عند السكاكي لاحمد مطلوب (مخطوط) وهى الرسالة التى نال بها المؤلف درجة الماجستير بمرتبة (جيد جداً) من جامعة القاهرة .
- ٢٩ - رأى فى البلاغة العربية . لاحمد مطلوب . مقالة نشرت فى مجلة جمعية المؤلفين والكتاب العراقيين . العدد الاول ١٩٦٢م .

